مجلة رفوف–مخبر المخطوطات – جامعة أدرار– الجزائر_____ المجلد 10/ العـدد: 01 (جانفي 2022) ص 742– 763
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

الوضع الاجتماعي "لمسلمي" تلمسان من خلال كتابات المستشرق ألفرد بيل في بداية القرن العشرين

The Social Situation of the Muslims of Tlemcen through the Writings of the Orientalist Alfred Bel at the Beginning of the Twentieth Century

الدكتورة آمال هاشمي [1]
Dr :AmelHachemi[1]
1 جامعة أحمد بن بلة– وهران (الجزائر)، hachemi_a@ymail.com

تاريخ الاستلام: 2021/07/06	تاريخ القبول: 2021/09/13	تاريخ النشر: 2022/01/25

الملخص: إن الاحتلال الفرنسي لتلمسان سنة1842م، جعلها تتعرض إلى عدة تغيرات عمرانية وتحولات سكانية وفكرية، ومن ذلك إنشاء مدرسة تلمسان العليا سنة 1850، وجلب المستشرقين إليها لتأطير أبناء المدينة، وكان هذا عاملا مهما مكن هؤلاء المستشرقين من معرفة الشعائر الدينية والجوانب العقائدية لدى "مسلمي" تلمسان، وكان من المهتمين بحياتهم الباحث "ألفراد بيل"، الذي نقل عنهم تفاصيل ومعلومات دقيقة في مؤلفه الموسوم ب "السكان المسلمون بتلمسان". وبالإضافة إلى الجوانب المذكورة التي ستكشفها هذه الدراسة في تلك الفترة المهمة من تاريخ الجزائر، فإننا سنتطرق فيها أيضا إلى طريقة اندماج المستشرقين مع أعيان ووجهاء المدينة، لكسب ودهم وثقتهم بغية الاطلاع على كيفية تسييرهم وإدارتهم بهدف السيطرة عليهم، فكان الطريق الأمثل لذلك، هو التعرف على خصوصياتهم وممارساتهم المختلفة، وما تعلق بها من عادات وتقاليد وأهم الطرق الصوفية المنتشرة بينهم.

الكلمات المفتاحية:ألفراد بيل، تلمسان، العادات، الطقوس، الأعياد الدينية.

Abstract

The French occupation of Tlemcen in 1842 exposed it to several urban changes, and demographic and intellectual transformations among which the establishment of the High School of Tlemcen in 1850, and bringing orientalists to supervise its students. That was an important factor that enabled them to understand the religious rituals and ideological aspects of the‘‘Muslims’’ of Tlemcen. Amongst these orientalists, Alfred Bel who was interested in their lives and he transmitted important details and accurate information about them in his book ‘‘The Muslim Population of Tlemcen’’. In addition to the previously mentioned aspects that will be revealed in this study, we will also discuss the integration oforientalists in the society, particularly with the notables of the city, to gain their trust in order to see how they run in order to control them. Therefore, the best way to do so was to know their features and various behaviours particularly what was related to their customs and traditions and the important Sufi brotherhoods.

Keywords: Alfred Bel, Tlemcen, Customs, Traditions, Religious Events.

المؤلف المرسل: د. آمال هاشمي، **الإيميل**: hachemi_a@ymail.com

1. مقدمة

لقد تكبدت فرنسا خسائر مادية وبشرية نتيجة فرضها لقوانين إدارية واستعمارية تعسفية جائرة على الجزائر لفترة دامت ستة عقود من الزمن، ولذلك كان عليها أن تبحث عن طرق أخرى في محاولة لتغيير أفكار المجتمع الجزائري وذهنياته بإدخال إصلاحات جديدة في مجال التعليم، مطبقة بذلك مقولة "الحاكم العام جول كامبون وغيره": "...إن الفرنسيين جاؤوا إلى الجزائر لنشر الحضارة والمبادئ الإنسانية العميقة..."(أبو القاسم سعد الله، 1992:23).

ومن أجل ذلك عمدت الإدارة الاستعمارية إلى جلب بعثات علمية، تضم علماء وأدباء وأطباء وباحثين بهدف التوغل في أعماق الجزائر ليكتشفوا خبايا سكانها وأسرارهم، وكان من بين هؤلاء المؤرخ "ألفراد أكتاف بيلAndré Octave Bel[1]" (Jeanne et André Brochier, 1937 :36. -Louis Abadie, 1994 :113-114.) وهو سوسيولوجي ومدرس ومسير بمدرسة تلمسان لمدة فاقت عشرين سنة، أقام فيها بهذه المدينة، التي كانت محط الرحال ومقصد المسافرين والعلماء الوافدين من المشرق والمغرب وحتى من أوروبا، باعتبار تلمسان عاصمة للمغرب الأوسط آنذاك، حيث انبهر بها الرحالة عندما زاروها سواء في الفترة الاستعمارية أو في العصور السابقة، فالمنطقة تزخر بعمرانها العريق وبساتينها وحدائقها الغناء المحيطة بجدرانها التي اعتبرت حصنا منيعا لسكانها، الذين ضموا فئات عرقية تدين بديانات مختلفة، ولذلك توزعت تلك الفئات على أحياء منفصلة عن بعضها البعض أي حسب انتمائها العقائدي، إذ نجد فيها الأوروبيين واليهود، أما الحضر والكراغلة والزنوج[2]فهم الفئة الغالبة المسلمة والتي أولاها ألفراد بيل اهتماما كبيرا في دراسته الموسومة ب "مسلمو تلمسان" (la population musulmane de Tlemcen) "وقد اطلعنا عليها بعناية ودقة، نظرا لما ورد فيها من معلومات قيمة شملت كل أحوال وجوانب المعيشية اليومية"لمسلمي" تلمسان خلال حقبة تاريخية مهمة وهي بداية القرن العشرين،هذا ما جعلنا نطرح الأسئلة التالية:

كيف كان الواقع المعاش اليومي "لمسلمي" تلمسان؟ وبماذا اتسمت معتقداتهم الدينية وممارساتهم الطقوسية؟ وهل التوصل إلى أدق تفاصيل وخصوصيات المسلمين سهل خضوعهم للإدارة الاستعمارية؟

وللإجابة على هذه التساؤلات كان لابد علينا أن نحدد طبيعة هذه الدراسة، هل هي عبارة عن رحلة علمية أم مجرد خلاصة لعقد عمل كلف به باعتباره معلما بمدرسة تلمسان لفترة استغرقت تسع سنوات (1899 إلى غاية 1908)، جعلته يحرر هذا البحث الذي خصص لدراسة معمقة وشاملة عن حياة مسلمي تلمسان، شملت على 91 صفحة قسمت إلى 5 فصول أو محاور، ضمت عناوين فرعية مع مقدمة، حيث تطرق فيها إلى الأهمية التاريخية

التي حظيت بها تلمسان باسم بوماريا في العهد الروماني إلى عاصمة الزيانيين في العصر الوسيط، ناهيك عن اعتراف العديد من الجغرافيين العرب والمؤرخين والشعراء والقسيسين– الذين سال حبرهم– بالمكانة الحضارية والعلمية والتاريخية والإستراتيجية التي كانت تتمتع بها المدينة، منذ العصر الوسيط إلى غاية العصر الحديث، ثم نجد الكاتب ينتقل إلى وصف المدينة الإسلامية القديمة التي أصبحت مستعمرة فرنسية(Alfred Bel, 1908 :1).

ورغم الكم الهائل من البحوث والمؤلفات والصحف والمجلات التي تناولت الحديث[3] عن تلمسان إلا أنها تفتقر إلى دراسة حياة المسلمين الخاصة والعامة هناك، وهذا ما تعجب منه بيل، فقد أهمل جانب معتقداتهم وأخلاقهم وشيمهم وعاداتهم الدينية والعلمية والاجتماعية، ولعل التوغل في مثل هذه الجوانب الحضارية "لمسلمي" تلمسان– حسب الكاتب– تقربه بالعصر الأوربي الوسيط، وهذا ما شد انتباهه حيث قال: "... حان الوقت لتدوين خصوصيات هذه الفئة المميزة اليوم"، خاصة وأنه استنتج من خلال ملاحظاته بأن ممارساتهم الاعتقادية تعود إلى زمن بعيد، قبل أن تؤثر فيهم الأفكار الفرنسية، التي أبادت وهاجمت وحاربت هذه الصفات (Alfred Bel, 1908 : 1).

وقد ركزّ الكاتب في مقدمته على أهمية التعرف على الحياة المادية والعلمية لمسلمي تلمسان بالدرجة الأولى، إذ أن هذا المجتمع التلمساني مكون من وحدة مميزة وفريدة، تشبه بقية مسلمي الجزائر بصفة عامة، حيث شكلوا واقتبسوا مقومات حياتهم وأخلاقهم واستنبطوها من عصور مختلفة وخاصة من أسلافهم البربر (Alfred Bel, 1908:2).

كما اهتم "بيل" بتاريخ تلمسان القديم والوسيط وخاصة من ناحية العقيدة فقد نبهنا إلى أمر مهم وهو أن معظم الكتابات والإصدارات(الإصدارات: شهادة ليون الإفريقي خلال القرن 16م،) (Alfred Bel, 1908:2) بخصوص سكان تلمسان ذكرت طبيعة عيشهم وطريقة تعلمهم، ومعاملاتهم في البيع والشراء، وحرفهم التي تنوعت من حياكة ودباغة، بالإضافة إلى ورعهم وإيمانهم ونظافتهم التي انفردوا بها، كل ذلك كان بفضل علماء تلمسان الذين وصفهم "بيل" بالمشتلة الخضراء التي أنارت العقول، وذلك بورع وتقوى رجالهم (De - Emile Janier,1947:21-51 Pimodan, 1903:56) الصالحين من ولاة ومرابطين[4](Alfred Bel, 1908:2).

ثم يختم "بيل" مقدمته بالدافع الذي حمسه لتقصي أخبار فئة الحضر وهو رؤيته بأنها حافظت على فيزيونيميا واضحة، حاول الكاتب تبيينها في صفحات لم تتعد57 صفحة، أما بقية الصفحات، فهي عبارة عن ملاحق مثلت مجموعة من الصور الفوتوغرافية[5] المتعلقة بعادات وتقاليد مسلمي تلمسان، كما قدم المؤلف شكره وامتنانه لعدد كبير من سكان[6]المنطقة، الذين سلّموه وبحماس معلومات شفهية قيمة عن عاداتهم وأخلاقهم وطبائعهم ومعتقداتهم

المحلية، خلال المدة الزمنية التي قضاها "بيل" بينهم، ليجمع كل ذلك بعدها ويحرره بهمة وعزيمة وينشره بباريس سنة 1908م.

2.التركيبة السكانية:

استعرض الكاتب في هذا الفصل التركيبة السكانية "لمسلمي" تلمسان الذين بلغ عددهم –حسب إحصائيات سنة 1900– 14567 مسلما داخل المدينة، أما تعدادهم في كل البلدية، فقد وصل إلى 25533 مسلما، حيث ينحدر مسلمو تلمسان إلى أربع عرقيات وهم الحضر والمورسكيون والكراغلة والزنوج، وقد خصص الكاتب صفحتين وضح فيهما أصل هذه الفئات، وانتماءهم الحضاري والعلاقة التي تربط الحضر بالكراغلة، والتي لوحظ بأنها علاقة تميزت بالفتور والخلاف وهذا بسبب المعايرة وتبادل العيوب الصادر من الجانبين، حيث نجد الحضر يعتبرون أنفسهم أسيادا، فيتفاخرون بذلك على الكراغلة الخدم الذين لا شرف لهم حسبهم، أما الكراغلة فيصفون خصومهم بالجراد، الذين يلفون رؤوسهم بقطع قماش طويلة تتدلى على قفاهم[7] (Alfred Bel, 1908:3-4 - M.Ch.Lutaud,1914:202-203).

3.الحياة الدينية.

1.3.الإسلام الأرتذكسي؟ !!:

إن إقامة "بيل" بتلمسان جعلته يعطينا تفاصيل دقيقة عن مدى إتباع المسلمين لتعالم دينهم، والتي رأى بأنها لم تستوف الشروط المفروضة(Alfred Bel, 1908:4.) ، رغم أن تلمسان كانت تعتبر من أهم العواصم الإسلامية، وأن سكانها متدينون ولطفاء جدا (M.Ch .Lutaud, 1914:203.) ، إلا أن تدينهم ومعتقدهم مشبع بالسحر والشعوذة، تتخلله أفكار مزيفة(هذه الممارسات ورثها المسلمون منذ العصور القديمة (الوثنية) ثم امتزجت بأركان الشريعة الإسلامية،) (Alfred Bel,1908: 4.- Alfred Bel, M.CM XXXI: 181.)لا علاقة لها بالتشريع الإسلامي الصحيح، وخاصة عند النساء وهي ملاحظة كانت تنطبق على كل مسلمي المدن الساحلية وحتى المناطق الداخلية منها، إذ كانوا يجهلون أسس الشريعة ولا يطبقون أحكامها بدقة ماعدا الصوم، فكل من يهتك حرمة شهر رمضان يهان ويذمم وينعت بالمتمرد والعاصي حسب رأي المستشرق ألفراد بيل (Alfred Bel, 1908: 4).

لقد تعمد "بيل" في كل كتاباته أن يخصص لمسلمي الجزائر مجالا من الدراسة، ويسقط ذلك على "مسلمي" تلمسان، وكأنه يصرّ على تبيين مدى تمسك الجزائريين بدينهم وعقيدتهم الإسلامية، مسلّطا الضوء على المسجد[8] ، باعتباره المؤسسة التعليمية التثقيفية ومقصد المصلّين خمس مرات في اليوم، يواظب عليها الرجال فقط ويؤمهم

مفت عينته الإدارة الفرنسية، في حين لا تتجه المسنّات إلى المسجد إلا نادرا، في صلاة الجمعة أو العيدين وليس من حق الشابات ذلك (Alfred Bel, 1908 :5).

وقد تعجب الكاتب حينما وجد "مسلمي" تلمسان يجهلون أحكام شريعتهم، رغم أن الدين الإسلامي له مكانة عظيمة عندهم، ويتساءل كيف أن مبادئ الشريعة الإسلامية لم تلقن بحذافيرها، إذ اقتصرت معارف المسلمين على توحيد الله والإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، والقرآن الكريم الكتاب المقدس عندهم، كما وجد بعضهم قد فضل حياة الزهد والتصوف مبتعدا عن ملذات الحياة وشهواتها (Alfred Bel, M.CM XXXI :179-182. - Alfred Bel, 1908 :5).

إن جهل المسلمين– في تلمسان– لتعاليم دينهم، جعل الكاتب في مواقف محيرة، خلقت فيه الفضول وحفزته للقيام بدراسة تاريخية لمعرفة كيفية انتشار الإسلام في شمال إفريقيا وخاصة في الجزائر.

أما قضية اعتناق البربر للدين الإسلامي، فيتساءل "بيل" من لقن بربر الجزائر الإسلام ؟ وما هو الإسلام الذي تعلموه؟ وحسب ما اطلع عليه "بيل" من مصادر، فقد استنتج بأن الإسلام دين حضاري، نشأ بمكة والمدينة، أين كانت تتواجد كل أساليب التمدن والتحضر، ولذلك فإن الإسلام – في رأيه– بقي محصورا في المدن الكبرى عكس المناطق الريفية (Alfred Bel, M .CM XXXI :182-191) التي حافظت على معتقدات الآباء والأجداد، بالإضافة إلى سبب آخر هو قلة عدد العلماء المتوافدين إلى القرى والتي كانت لا تتوفر على شروط الإقامة.

إذن فقد ربط "بيل" قضية جهل "مسلمي" تلمسان لأركان الشريعة، بفكرة عدم احتكاك العلماء بسكان القرى أو البوادي هناك، ولكنه رأي يحمل بعض التناقض، ولذلك لا نوافقه إلى حد بعيد، ذلك أن تلمسان كانت آنذاك قطبا علميا ودينيا، وحاضرة ثقافية قصدها الكثير من العلماء، كما أنه "بيل" تجاهل ما مرت به تلمسان من نكبات متتالية عبر العصور التاريخية، منها الفترة العثمانية التي همش فيها العلماء والمفكرون، فهاجروا إلى أقطار أخرى بزادهم العلمي والثقافي، كما غيب الكاتب حقيقة الاستعمار الفرنسي الذي حاول طمس كل مقومات الشعب الجزائري من معتقد ودين ولغة، وراح يلح "بيل" على فكرة عدم التدين الحقيقي أو العميق "لمسلمي" تلمسان، إلا أننا نجده في الصفحة الخامسة من مؤلفه، يشير إلى أمر مهم، "وهو مواظبة الشيوخ على أداء صلاة النوافل وتقديم الصدقات..."(Alfred Bel, 1908:5)، وبالتالي لا يمكن تجاهل حقيقة أن الحضر مجتمع متدين ومحافظ، وهذا ما تؤكده تصريحات العديد ممن زاروا تلمسان وأعجبوا بها.

2.3.التعليم الديني في تلمسان:

لقد انحصر التعليم في تلمسان على تحفيظ الصبيان القرآن الكريم ، وعلى تعليمهم فتاوى شرعية مختصرة بدون شرح، ولعل هذا ما أدى إلى ضيق التفكير وتصلب الأذهان(على قول بيل)(Alfred Bel, 1908 :192) ، خاصة وأن الآباء اقتصروا على تعليم أبنائهم فرائض وسنن الوضوء والصلاة فقط(Alfred Bel,1908 : 5)،مهملين دقائق الأمور في أركان وتعاليم الإسلام ومسائل العبادة فيه(حسب رأي بيل).

3.3.الطرق الصوفية وانتشارها في تلمسان:

كان الكثير من التلمسانيين ينتمون إلى طرق صوفية، و أكثرها انتشارا القادرية، وتوجد زاويتان تحت تسيير سبعة مقدمين وتليها طرق أخرى، كالطيبية والعيساوية، والدرقاوية، والكرزازية، والتيجانية، حيث نجد أكثر الوافدين للزوايا هن النسوة اللواتي يجتمعن منفصلات عن الرجال، ويرى "بيل" بأن هذه التجمعات لا فائدة منها، فلا تعدو أن تكون أشعارا صوفية وأقوالا مرددة، تصحبها إيقاعات موسيقية ورقصات، كانت منتشرة في جميع البلدان المغاربية (Alfred Bel, 1908 : 5).

4.3.الأولياء والصالحون:

وخلاصة القول فإن "بيل" قد ركز _في هذه الدراسة_على التدين والمعتقدات، حيث يتحدث عن تلك المناسبات الإسلامية الكثيرة في تلمسان والتي كانت تعد تظاهرات رسمية يقوم –من خلالها الأغنياء– بتقديم الصدقات للفقراء، ولكن هذه الحفلات كانت تتخلّلها بعض الممارسات الوهمية الوثنية الدخيلة على الإسلام، والتي عرفت عند كل الطبقات الاجتماعية المسلمة، إذ كانوا يحافظون على طقوس قديمة وعادات موروثة عن الأجداد والأسلاف وامتزجت بأركان الشريعة الإسلامية(Alfred Bel,1908 :5)، إذ كان المسلمون يتوجهون إلى الأضرحة[9] ويتبركون بها، يشعلون الشموع ويطيبون المكان بالبخور(Alfred Bel, -Emile Janier, 1947 :23. 1908 :6)، كما كان الكثير منهم يتبركون بالحجر والينابيع[10] المائية، حيث كانت متنفسا روحيا تلجأ إليه النسوة بغية التنزه، وقد كان من طقوسهن، تعليق قطعة قماش على غصون الأشجار لتظلل المنبع المائي المقدس، ثم يشربن منه ظنا منهن بأنه يذهب الأسقام (Emile Janier, 1947 :23,26-27.- Alfred Bel, 1908 :5) ، فهذا الماء –في اعتقادهن– قريب من ضريح الولي الذي يشفع لهن عند الله وتجاب دعواتهن(Alfred Bel, 1908 :6). إذا فالسؤال الذي يطرح: ما سبب ارتباط مسلمي المغرب العربي بالأولياء الصالحين، وبالخصوص مسلمي تلمسان؟.

لا يفوتنا أن نشير بأن تلمسان كانت ولا تزال تزخر بمواقع طبيعية جذابة، منها هضبة لالة ستي، أين تتواجد تلك الينابيع المائية المشهورة، ومنها منبع سيدي رأس العين، الذي كان يتوافد عليه سكان أحواز المدينة، فيوقدون البخور، ويتقربون للمقدم بالهدايا، باعتباره الحارس الأمين للولي (Alfred Bel, 1908 :7.) والوارث المخلص المتبرك بسيده الذي توفي منذ زمن بعيد.

وقد حاول "بيل" التعليق على ذلك قائلا: "هؤلاء المسلمون جهلة، فهم يظنون أن المعتقد هو شيء ملموس، باعتبار أن الإله وثني يقدم له قربان طمعا في شفاعته، وكأن المرابط[11]أو الصالح هو الذي يتوسط إليهم عند الله. (Alfred Bel, 1908 :6-7.).

أما "إميل جانيEmile Janier"، فقد اعتبر هؤلاء الذين جعلوا الله شيئا ماديا، كفرة لا عقيدة لهم(Emile Janier, 1947 :24).

5.3.اعتقاد التلمسانيين بالجن:

كان التلمسانيون يعتقدون بالجن، إذ كان في ظنهم بأن الجن يأخذ صورة مرئية غالبا ويخشون الحديث عنه، ويعملون على إبعاده عن بيوتهم بقراءة بعض الأدعية والسور للتحصين، لدرجة أنهم يخشون التلفظ باسم الجن(الاعتقاد بالجن عند المسيحيين هو شبيه بما هو عند المسلمين.) (Alfred Bel, 1947 :7) ويلقبونه بـ : "هادوك الناس المؤمنين والمسلمين"(Alfred Bel, 1947 :6-7.).

أما بخصوص السحر والشعوذة في تلمسان، فكان لها رواج وشهرة كبيرة في وسط المجتمع نظرا للاعتقاد الراسخ بتأثيره في الحياة والأرواح، فكل شخص عند هؤلاء لا يحقق آماله ورغباته إلا عن طريق ممارسة السحر أو التحصن بالتمائم[12] (Alfred Bel, M.CM XXXI : 197).

4.الحفلات والتظاهرات العامة:

لقد عرف المجتمع التلمساني بمعتقدات أخرى متنوعة، ظهرت من خلال الحفلات العامة والخاصة، إذ اشتهرت تلمسان بمواصفات وعادات محلية مميزة، وقد قسّم الكاتب هذه التظاهرات إلى قسمين هما: الأعياد الدينية والتظاهرات الخاصة المحلية.

1.4.الأعياد الدينية.

خصص "ألفراد بيل" لهذا المحور ست صفحات، اتبع فيها التقسيم الكرونولوجي التاريخي، في الحديث عن الأعياد الدينية، وكان أول عيد هو شهر محرّم وهو الشهر الأول من السنة الهجرية الجديدة، وقد اعتاد المسلمون الاحتفال باليوم العاشر منه سنويا، حيث يصادف إحياء عدة مناسبات، خاصة وأنه يوم اغتيال الحسين بن علي

في معركة كربلاء سنة 61هـ"، ولذلك هو موسم حداد لدى الشيعة، أمّا السنيون – ومنهم التلمسانيون– فيخرجون زكواتهم السنوية التي تقدر بـ1/10 من مجموع الأموال التي دار عليها الحول وبلغت النصاب، لتسلم للفقراء والمساكين والمحتاجين(Alfred Bel, 1908:8-9.- Abderrahman Mahdjoub,1954 : 47.)، دون أن يفوتوا فرصة صيام هذا اليوم المبارك من عاشوراء تكفيرا عن ذنوبهم، كما يجتهدون في التكفل باليتامى ومساعدة المحتاجين والفقراء مجسدين مبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي بينهم، ويفضل الكثير من هؤلاء التطهر بالماء والتداوي به، باعتباره منقيا من الكفر والنجاسة خاصة وأنه الماء الممجد، ذو المكانة المقدسة كماء زمزم(Alfred Bel, 1908:7-8).

2.4.الاحتفال بالمولد النبوي الشريف: هو إحياء لذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عيد يحتفل به منذ العصور الوسطى بطقوس مختلفة، فيه تقدم الوجبات الغذائية للفقراء، وتبعث إلى كل خطيبة، الهدايا المتنوعة كالقماش المزين وأطباق الحلويات التقليدية، أما الأطفال فيرتدون الثياب الجديدة، وخاصة الفتيات اللواتي يلبسن أجمل الألبسة المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية، ويجلن في الأحياء ويكرّرن ذلك إلى اليوم السابع الذي يلقب بيوم التشويشة (Tchouicha)، كما يتمتع هؤلاء الأطفال بإشعال المفرقعات، مع ترديد المدائح النبوية، إشادة بشخصه عليه الصلاة والسلام(Alfred Bel, 1908:9) ، وتبجيلا له والحث على الصلاة عليه.

في حين يجتمع مريدو الطرق الصوفية في الزوايا، يرددون أذكارا وأدعية وابتهالات تصحبها تلاوات للقرآن الكريم، وفي صبيحة اليوم الثامن يتجه المريدون والأطفال سيرا على الأقدام أو راكبين في العربات نحو زاوية سيدي بومدين مرددين أغاني شعبية على طول الطريق إلى غاية وصولهم إلى حي العباد، وهو المكان المقدس المبجل من طرف سكان المدينة(Abderrahman Mahdjoub,1954:48. - Alfred Bel, 1908:9).

3.4.عيد الفطر: هو عيد ديني يحتفل به المسلمون بعد صومهم ثلاثين يوما من شهر رمضان، وتستغرق مدة الاحتفال به ثلاثة أيام، والذي يعلن ظهور هلال شوال رجل يدعى"البراح"، وذلك بأمر من قاضي المدينة، و في هذا العيد يدفع أرباب الأسر زكاة الفطر عن كل فرد من أفراد عائلتهم، بمقدار صاع واحد من القمح، وكان يلقبها التلمسانيون "بمد النبي"(G.De.Lombay, 1893 : 355-356.-Alfred Bel, 1908 :10).

4.4.عيد الأضحى: وهو عيد النحر ويصادف اليوم العاشر من شهر ذي الحجة، تسبقه وقفة عرفة العظيمة في الحج، وهو يوم يجتمع فيه المسلمون في المساجد لأداء صلاة العيد، حيث يؤمهم مفت هو أول من ينحر الشاة عند باب المسجد، بعد انتهاء الصلاة يتبعه المصلون في نحر شياههم(Alfred Bel, 1908 :10).

وهناك أعياد دينية أخرى أقل أهمية من الأعياد التي ذكرت، يحافظ عليها المسلمون المتدينون، ويلقبونها بالنفقات[13](Alfred Bel, 1908: p11. -Alfred Bel, 1908 :12)إدموند ديستان– م.بن حاجي،2011 : 81–84.) ، وهذا تطبيقا لما نصت عليه الشريعة الإسلامية "فالصدقة هي توسعة على العيال والأقارب واليتامى".

وكان رب الأسرة إذا قرر التصدق بالطعام واللحم ، فإن القاضي يعلن على ذلك ليلة قبل الموعد، حتى يعلم الفقراء، فيجتمعون في المكان المحدد سابقا لكي يستلموا العطاءات من المتصدق(Alfred Bel, 1908 :11-12) الذي صام ذلك اليوم كفارة لذنوبه.

5.الأعياد العامة: هي متنوعة وكثيرة في تلمسان ولذلك سنكتفي بذكر أشهرها، وهي:

1.5.وعدة الشيخ سيدي السنوسي: يجتمع المريدون مرة واحدة في السنة خلال فصل الشتاء، فيحضرون طعاما بمساهمة الجميع أو الأغلبية ويتمثل في طبق الكسكسي باللحم، وهو في اعتقادهم قربان يقدم لكل الضيوف، راجين من الله ومتضرعين إليه أن يسقط الغيث النافع في هذا الفصل.(Alfred Bel, 1908 :13)

2.5.طلب اللطف[14]: هي مقولة يرددها المسلمون داعين الله ومبتهلين طلبا لسقيهم بالمطر عندما تشح السماء وتجذب الأرض.(Alfred Bel, 1908 : 13)

3.5.العَنْسَرة(La Ançra): مثلما كان يحتفل المسلمون في تلمسان بعيد الناير في الشتاء، كانوا يحتفلون أيضا بحلول فصل الصيف، حيث تجمع سبعة أنواع من النباتات البرية، وهي نبتة السذاب والزعتر وبذور الشيرفيل والبابونج وإبرة الراعي وبينيوريال وبلسم الليمون ثم تخلط هذه الأنواع جميعها وتحرق(Alfred Bel, 1908:13).

ولم يذكر الكاتب سبب ذلك، هل هو سلوك سحري، أم هو مجرد إحياء لعادات قديمة لم يحدد مقصدها؟ ولكن بعدما تصفحنا مصدر ادموند ديستان، توصلنا إلى مفهوم أو مدلول هذه الممارسة التي كان يقوم بها سكان قبيلة عزايل[15](Congrès d'Oran, 1888 :123.) خلال شهر جوان، حينما تذبل الحشائش التي جففتها الشمس المحرقة، لذلك تحرق في وسط كل حقل، وسرعان ما يتصاعد دخان كثيف، يعتقد أن له قوة في إثمار الأشجار(إدموند ديستان، 2011 : 100–101.)مرةأخرى، ويرمز هذا الدخان المتصاعد إلى نمو النسغ، الذي يساعد على نمو فاكهة لذيذة وطيبة (إدموند ديستان، 101:2011.)مستقبلا.

4.5.الدردبية: هي من أهم الأعياد التي يحتفل بها الزنوج، الذين ينتمون إلى طائفة سيدي بلال، إذ هي عبارة عن وعدة سنوية تقام خلال شهر سبتمبر، وقد امتازت تلمسان بعادات خاصة في الاحتفال بها، حيث يجمع مبلغ من المال لاقتناء ثور كبير، وفي يوم العيد يتوجه الحضور والمدعوون إلى مزار سيدي يعقوب[16](إدموند

ديستان،2011: 120 . Alfred Bel, 1908 :13) ، مرفوقين بالثور الكبير المغطى بقطعة قماش لماعة، تحت أنغام "القرقابو" والطبل وصولا إلى الضريح، وهناك توقد البخور وينحر الثور (Alfred Bel,1908 :13).

وتعتبر الأعياد الدينية التي لخصها "بيل" في ست صفحات، دليلا قاطعا على تآزر المسلمين وتعاونهم ماديا ومعنويا وتعكس الأواصر المتينة للمجتمع الإسلامي، بإقامة الولائم التي يتم –من خلالها– إسداء المواعظ والإرشادات للجميع، لتبيان أهمية وفائدة هذه الوعدات التي تعد من شيم المسلم الكريم الذي يسارع إلى فعل المعروف والخير الذي يجنبه المنكر والمعاصي والشرور.

6.المناسبات العائلية: لقد قدم لنا بيل في مؤلفه مجموعة أخرى من الاحتفالات التي كانت تقيمها العائلات كالأعراس والولادة والختان والجنائز (Alfred Bel,1908 :13-14-15) ولكن كلما تمعنا في قراءة هذه المناسبات، إلا ووجدنا فيها سلوكيات غريبة، كان يمارسها المسلمون، فقد كانت من عاداتهم التي ورثوها منذ زمن بعيد.

أما الزواج في تلمسان فيتم بين الأقارب، إذ يرتبط ابن العم بابنة عمه أو بنت خالته، ولا يتم الزواج بينهما إلا بعد توفر شروط وأركان الزواج، في حين يقام حفل الزفاف بحضور الأقارب والمدعوين(Alfred Bel, 1908:16-20.) ، إذ لم تخل تحضيرات الزواج من عادات وتقاليد تميز أهل تلمسان عن بقية سكان الجزائر، وقد نجد بعضها يمارس إلى يومنا هذا وهو ما خصص لها "بيل" أربع صفحات، ثم انتقل– بعد ذلك– إلى الحديث عن الجنائز والوفيات وطريقة غسل الميت ودفنه والبكاء عليه بعد استدعاء "البكاية" التي تنوح وترثي الميت وسط النسوة، وزيارة قبر الميت صبيحة اليوم الثاني من دفنه، ولا ينقطع المعزون عن بيت أهل الميت ليواسوهم ويهوّنوا عليهم كربتهم(Alfred Bel, 1908:20-22) ، ويقدمون لهم يد المساعدة بإحضار بعض اللوازم والضروريات، كالقهوة والسكر..، مما ينمي الإحساس بالتعاون والتكافل الاجتماعي وروح المؤازرة لدى المصابين.

1.6.عشاء الفأل: إن سكان تلمسان كبقية _شعوب المغرب العربي_ لهم انتماء واحد ورقعة جغرافية مشتركة، يشتركون في بعض الممارسات العقائدية والسلوكية، حيث لوحظ بأن المجتمع التلمساني –وبالخصوص المرأة– قد حافظ على موروث ثقافي خرافي تراكم عبر زمن، ومن الصعب الإلمام بكل هذا الموروث وهذه المعتقدات، التي التزمنا بالحديث عن أهمها فقط في هذا المبحث، وهو الاعتقاد بوجود الجن، وحب الاطلاع على المستقبل والتنبؤ بما سوف يحدث، بشأن غائب تنتظر عودته، أو سجين يحرر أو امرأة تحمل أو عازبة تتزوج، ولذلك كانت النسوة يحضرن "عشاء الفال"(Alfred Bel, 1908:24-25.) الذي كان يقدم ليلا في الأطباق إلى الجن.

7.الحياة المادية.

تمتعت العائلة التلمسانية في المدينة بظروف معيشية حسنة مقارنة مع سكان(Alfred Bel, 1908 :34-36. Robert Tinthoin, 1954 :18-) البادية[17]، باعتبار أن الحضر كانوا ميسوري الحال، منازلهم مهيأة ومجهزة بكل مستلزمات الحياة المترفة، فكان باستطاعة ربّ الأسرة أن يقتني كل ما يشتهى من خضر وفواكه ولحوم وأسماك، كما كانت الأم تحضر أفضل الأطباق وألذ الحلويات كالكعك والغريبية(Alfred Bel, 1908 :27-29).

كما تطرق "بيل" إلى لباس المسلمين من رجال ونساء، فأسهب في تقديم كل التفاصيل عن العباءات والأحزمة والشاشيات، وحايك المرأة ومحارمها وحليّها وتسريحة شعرها ووسائل التزين (Alfred Bel, 1908 :33-34. والتطيب كالكحل والسواك(التلمسانيون لم يستعملوا الوشم كبقية سكان شمال إفريقيا باعتباره مكروها.) Alfred) (Bel,1908 :30-34.

ولم يهمل الكاتب الحديث عن طرق الترفيه في المجتمع التلمساني، كالألعاب و السهرات و الرقص مما تعود عليه أهل تلمسان، مشيرا أيضا إلى انشغال الأطفال بألعابهم، و اجتماع الكبار في الزوايا للدعاء والذكر ويتخلل ذلك بعض الرقصات الدينية المؤثرة (Alfred Bel, 1908 :36-40).

1.7.النظافة عند التلمسانيين:

إن الموقع الجغرافي لتلمسان جعلها تمتاز بمناخ صحي، ما أثر إيجابيا على المسلم التلمساني الذي امتاز بطهارة البدن والثياب والمكان، فهو المقيم لصلواته الخمس، التي تلزمه الغسل أو الوضوء خمس مرات في اليوم، كما كان يضطر إلى الاستحمام في الحمام[18]مرة كل أسبوع(Alfred Bel, 1908 :41.- De Pimodon,1903 : 84.-G.De.Lombay, 1893 :347.) (Alfred Bel, 1908 :40-43).

8.الحياة الفكرية.

يتحدث التلمسانيون لهجة[19](Alfred Bel, 1908:43) عربية لكنها ضمت العديد من اللهجات من بربرية و تركية و مغربية، ذلك لأن تلمسان استقر بها العثمانيون قرابة ثلاثة قرون، بالإضافة إلى أن موقع المدينة مثل مفترقا للطرق الرئيسية، حيث تمر به العديد من القوافل التجارية، وخاصة في مجال المبادلات الاقتصادية التي كانت تتم مع جارتها المغرب الأقصى(Alfred Bel, 1908:43-45.).

1.8.الحرف والمهن: مازالت تلمسان تحافظ على تراثها الثقافي المادي والذي يتمثل في مساجدها وهندسة قلعتها المشور وجمال منازلها المورسكية، ولكن "بيل" استغرب أثناء تواجده بتلمسان عدم تعرفه على أي حرفي أو بناء أو مهندس في تلمسان بإمكانه ترميم بناية أو إنشاء أخرى شبيهة لها، وقليلا ما كان يجد نجارا، وإن وجد، فإنه كان

يكتفي بصناعة بعض الأدوات البسيطة، كمهد الرضع و التابوت والموائد..أما النحت على الرخام فقد تمثل في كتابة بعض الآيات قرآنية على القبور فقط(De Pimodon, 1903 :69-70-73. – Alfred Bel, 1908 :45-46).

وكادت تتعدم صناعة النحاس والحديد والبرونز في تلمسان، ماعدا حرفة الطرز على الجلود والقطيفة التي جلبها مهاجرو الأندلس إلى تلمسان، بالإضافة إلى بعض الدرازين ونساجي الصوف الذين اهتموا بحياكة البرانس والأفرشة والزرابي(Alfred Bel, 1908:48-49.).

2.8.الموسيقى: ألف التلمسانيون سماع الموسيقى الصوفية أو الأندلسية حيث انتشرت فرق موسيقية تضم خمسة موسيقيين برفقة قائدهم، يعزفون على الآلات الموسيقية المختلفة –كالكمنجة والربابة والقويطرة–، أعذب الألحان والأشعار (Alfred Bel,1908:48-49.).

3.8.الأدب الشعبي: عرف المجتمع الجزائري بقرض الشعر الشعبي، بالإضافة إلى إتقان الأمثال والألغاز والقصص والحكايات، وهذا ما ينطبق على مسلمي تلمسان، التي عرفت بشيوخها الماهرين في نظم الشعر وأبرزهم بن مسايب وابنه دجيدي وأحمد بن تريكي وسعيد بن عبد الله وبن سهلة...(Alfred Bel, 1908:50-51.).

9.العائلة والمجتمع.

وأنهى "بيل" هذه الدراسة بالأسرة المسلمة التلمسانية وما كانت تمتاز به من مواصفات نلخصها في مجموعة من النقاط وهي:

- إن كل المعاملات التجارية أو الفلاحية، كانت تتم وفق شروط نصت عليها الشريعة الإسلامية، إذ كان الربا محرما والبيع بالمقايضة جائزا (Alfred Bel, 1908:53.).
- محافظة الزوج على زوجة واحدة دون تعدد مثلما يحدث في بقية القبائل المحاذية للمدينة.
- يظل الابن المتزوج حديثا في بيت العائلة لعدة سنوات، ومما يعزز قوة العائلة وتماسكها، ويعتبر الجد أو الأب السلطة العليا في تسيير شؤون العائلة، إذ كان يدعى "سيدي" فهو الآمر الناهي في أمر زواج أبنائه، والحريص على زواجهم داخل العائلة.
- المرأة المتزوجة محترمة في بيتها ولها كل الحرية في التصرف في أموالها، فهي سيدة المنزل التي تشرف عليه وتدير شؤونه.

- لا تخرج الشابة أو المتزوجة من المنزل إلا بإذن ولي أمرها، وإن خرجت فمرتدية الحايك الذي يغطيها من رأسها إلى أسفل قدميها، عكس مثيلتها البدوية التي تعيش بشقاء، كما تشاركها زوجات أخريات حياتها الزوجية (Alfred Bel, 1908 :55.-G.De.Lombay, 1893 :265-266).

ثم أردف "بيل" هذا الموضوع بخاتمة شملت مجموعة من الاستنتاجات وهي:

- تلمسان عاصمة الملوك الثلاثة للمغرب الأوسط.
- تلمسان تحافظ على مجتمع مسلم متأصل، ينفرد ببعض الصفات تختلف عن مسلم البادية في ثقافته وحرفته ولهجته وعاداته في اللباس والأكل والتعامل...
- إسلام هؤلاء التلمسانيين عميق يظهر من خلال تلك الممارسات والسلوكيات التي تعكس احترامهم لتعاليم العقيدة الإسلامية، مرفقة بشعائر وتظاهرات وطقوس شعبية وجدها الكاتب مشابهة للمعتقدات المتبعة من طرف الشعوب الأولى لأوروبا الحديثة(Alfred Bel,1908: 56.).
- المرأة التلمسانية هي أكثر تصديقا للطقوس الوثنية والسحرية، كون تلك المرأة كانت مغيبة عن كل التظاهرات الثقافية والعلمية التي كانت خاصة بالرجال فقط، لأنها كانت ممنوعة من أي اتصال خارجي أجنبي.
- المرأة القروية كانت أكثر حرية، فهي تخرج للعمل في الحقل كاشفة وجهها، ما أثار غيرة المرأة التلمسانية (Alfred Bel,1908: p56.).
- التحاق أبناء الجزائريين بالمدارس الفرنسية، مكنهم من الاتصال المباشر مع الفرنسيين، والكشف عن لغتهم وأفكارهم ومعتقداتهم وحضارتهم الغربية.

ومجمل القول يبقى أن نشير إلى أن المجتمع التلمساني المسلم مختلف عن المجتمع الغربي في اللغة والمعتقدات الدينية والعادات والتقاليد، وليس بالأمر الهين أن يحارب مجتمع همش منذ قرون، ماضيا مليئا بالمعتقدات مشبعا بالطقوس السحرية.

كما أن تلمسان حافظت على موروثها الثقافي العمراني الأصيل الذي فتح مجال البحث أمام العديد من المستعربين والسوسيولوجيين للتنقيب والكتابة والإلمام بتاريخ المدينة الذي يجهله التلمسانيون، ماعدا بعض الأمثال والقصص، جعلتهم أناسا طيبين ولطفاء وكرماء.

وتجدر الإشارة إلى أن مثل هذه الدراسات يجب أن تكون أخرى متشابهة، خاصة بفئة اليهود، والتي تتحدث لهجة عربية مختلفة عن لهجة الحضر وتعيش معهم وتشاركهم الكثير من العادات والتقاليد (Alfred Bel, 1908 :57).

10.الخلاصة:

لقد زودنا المؤلف "بيل" بمعلومات مستمدة من روايات شفوية، سمعها من التلمسانيين، كما استعان بمجموعة من المصادر التي قدم لنا – من خلالها –هذا البحث الذي استوفى كل شروط الدراسات الإثنوغرافية، ولا يمكن لأي باحث مهتم، سواء كان مؤرخا أو سوسيولوجيا أن يستغني عنها، لما لها من أهمية كبيرة في إبراز خصوصيات "مسلمي" تلمسان، إذ أننا قد شاهدنا من خلال الإطلاع على فصول الدراسة، أن "بيل" كان مختصا في مثل هذه المواضيع، باعتباره كان متقنا للغة العربية، وله خبرة ودراية في مثل هذه البحوث الجديرة بالدراسة التي تنوعت فصولها، وكانت شاملة تهدف إلى التأريخ لفترة مهمة عاشها التلمسانيون في بداية القرن 20م.

وكان الفضول هو الدافع الأكبر للكاتب إلى التحري عن عقلية المسلمين بالتعمق في حياتهم الخاصة وطريقة عيشهم، كما يعد مبادرة محفزة، لفت –من خلالها– "بيل" انتباه الباحثين للتأليف في مثل هذه الدراسات، ولذلك نجده يدعو العلماء والكتاب في خاتمة كتابه إلى التخصص في دراسة شبيهة خاصة بحياة يهود تلمسان.

أما عن منهج الكتابة الذي اتبعه "بيل" فهو منهج المقارنة، فنجده يوازن إسلام التلمسانيين –الذي سماه بالإسلام الأرتذكسي ؟؟!!– بالدين المسيحي، ويقارن في مواضع أخرى أيضا بين حياة البدوي وحياة المتمدن.

ومن خلال اطلاعنا على أعمال "ألفراد بيل" صادفنا مقالا بعنوان: "المجتمع الإسلامي التلمساني" وقد نشر في جريدة صدى وهران (Echo d'Oran) (G.S.Tlemçani, 15/02/1909 :2.)من طرف المحرر (ج.س.التلمساني G.S.Tlemçani) الذي حاول التعليق على عمل "بيل"، فثمنه معيدا الفضل في ذلك إلى المدرسة التي عينت العديد من الأساتذة، والعلماء والمثقفين(كمارسيه W.Marcais) و (م.دومبين M.Demombyn) و(ألفرد بيل Alfred Bel) ، حيث كان من بينهم "بيل" الذي راح كاتب المقال يمدحه ويشيد بخصاله الحميدة، وإخلاصه للمدينة التي احتضنته، فهو الرجل الذي قضى وقته وبذل كل مجهوداته للبحث عن تاريخ تلمسان التي أحبها وأراد أن يعرفها للتلمسانيين وللأجانب(G.S.Tlemçani, 15/02/1909:2- 7) ، وبفضل ذلك أنشأ "بيل"هرما كبيرا ضم العديد من الذكريات والدراسات والمقالات نشرت في العديد من الدوريات والصحف والمجلات، ومن بينها هذه الدراسة الإثنوغرافية التي اعتمد "بيل" فيها على منهجية النقد ومراجعة كل المصادر التي استنبطها من أفواه تلامذته. إذ كانت دراسة فريدة ومميزة تحمل في طياتها دافعين، أحدهما تاريخي وآخر فضولي، بغية الكشف عن خصوصيات المسلمين، لاسيما في فترة كان فيها العالم الإسلامي محاصرا من كل الجوانب وفي خلاف كبير مع العالم المسيحي.

لذلك نجد أن "التلمساني" يوجه نداءا للعالم الإسلامي الذي هو في سبات عميق، بأن يجمع كل قواه لمحاربة كل انتماء عقائدي فاشل يحمل في طياته معتقدات قديمة، والمطالبة بتكثيف الجهود لإدراك الفهم الحقيقي لأركان الدين الإسلامي على أنه رباني، والاجتهاد لتجديد معانيه بقوى جديدة لمواصلة مصير جديد، بعد جرد كل معارفه وأخطائه وكل أحكامه وطموحه، قد يمكنه العبور إلى طريق النجاح والتطور.

ورغم أن "التلمساني" مدح "بيل" ونوه بعمله، إلا أنه رد عليه في مسألة الزوجة التي لا تخرج مكشوفة الوجه فصرح بمايلي: "إن المسلم كتوم بطبعه، لا يروقه التدخل في حياته الشخصية، غيور لا يحب أن تخرج زوجته كاشفة الوجه، ولا يؤمن بالنظرة البريئة الساذجة، وليس من طبعه أن يدون ذكرياته الخاصة، وحتى المرأة التي تجيد تأليف الروايات، لا تفعل ذلك وإن كان باسم مستعار، إذ لم تكن لتبوح بمكنونات نفسها ومشاعرها وأسرارها". ولولا طيبة "بيل" ومحبته لما كشف له المسلمون عن خصوصياتهم. وفي آخر المقال صرح "التلمساني" : "إن "بيل" حرر معلومات بلغة صحيحة وواضحة ومفهومة، بعيدة عن كل تصنع أو تكلف، فهي أحكام عالم أخرج إلى النور كل ما وجده أساسيا ووضعه في المكان المناسب والمقام الملائم من دراسته، كما وجه نداء للمهتمين بهذا التخصص ليخوضوا تجربة "بيل" شرط أن يكون اقتباسهم وترجمتهم للعبارات والأفكار بشكل جيد (G.S.Tlemçani, 15/02/1909: 2) وصحيح.

11.خاتمة:

ومن خلال اطلاعنا على كتابات "بيل" استنتجنا مايلي:

- إن "بيل" مستشرق، قام ببحوث ودراسات كثيرة وعديدة اهتم فيها بالجانب الديني والسوسيولوجي والإثنوغرافي والتاريخي لسكان شمال إفريقيا البربر والمسلمين بالدرجة الأولى.

و نلخص ما جاء في مقالاته المحررة والمنشورة ما يلي:

- كان "بيل" يطالب ويلح على كل العلماء والأدباء والباحثين على تعلم إثنوغرافية سكان الجزائر وتعليمها بالدرجة الأولى للعسكريين المتربصين الموجهين إلى صحراء الجزائر(Alfred Bel, 1931 :533.).
- وجه نداءات لكل الباحثين أن يخوضوا تجارب في تحرير مقالات ومطبوعات مواضيعها اجتماعية ودينية وحضارية (Alfred Bel, M.CM XXXI :177-179. - Alfred Bel, 1931 : 533-540).
- فتح مدارس لتكوين الغربيين المثقفين وتحفيزهم على تعلم اللغة العربية ودمجهم مع أبناء المسلمين والتعمق في محيطهم العائلي، حتى يمكنهم من اقتباس واستنباط معلومات قيمة عن خصوصيات وطبائع وأفكار المسلمين، سواء كان ذلك في البوادي أو في المدن والحواضر(Alfred Bel, 10/1912 :475).

- ثمن "بيل" ما قامت به الإدارة الفرنسية بإرسال لجنة علمية مابين سنتي (1844-1853م)، والتي جمعت معلومات عديدة عن الجزائر، حررت ونشرت في 16 مجلدا، لكن أغلبها لم يعد بحوثا علمية تفتقد للتخصصات الاجتماعية" (Alfred Bel, 1931 : 529).
- يجب تقصي عقلية الجزائريين المسلمين يوميا، باعتبار الكثير منهم لهم دراية بمبادئ الشريعة الإسلامية (الطرق الصوفية) على خلاف الآخرين الذين كانوا يجهلون أحكام الشريعة باعتبار أنهم يحفظون القرآن الكريم ولا يفقهونه. حيث لاحظ "بيل" بأن إسلام هؤلاء مركب من عدة معتقدات وقسمه إلا ثلاث أصناف وهي:

أولا- الإسلام الرسمي: هو إسلام المساجد يضم المعتقدات الأولية للإسلام.

ثانيا- الإسلام الصوفي: يشمل الثقة والإيمان القوي في الولاة والصالحين.

ثالثا- الممارسات الطقوسية: السحر والشعوذة ومزجها بأركان الشريعة الإسلامية، بالاضافة إلى ما ذكره من تظاهرات وولائم وتقديس للماء والنار (Alfred Bel, M.CMXXXI : 181-196-198).

- مطالبة الإدارة الاستعمارية بالقيام بتحريات في المجال الديني، وهذا تطبيقا لما صرح به الحاكم العام"جونارتJonnart" سنة 1905، حيث قال: "خلال 25 سنة القادمة على الإدارة أن تقوم بتحريات واسعة حول نمو وتطور المجتمع الجزائري في جل الميادين والمجالات، ويجب خاصة معرفة شدة الانفعال والتوتر الديني في مختلف نواحي الجزائر وعند مختلف طبقات المجتمع (Alfred Bel, M.CM XXXI : 1908) خلال سنوات الاحتلال".
- التواجد الفرنسي يعتبر تهديدا للمسلمين ولدينهم، فالكثير من الجزائريين رفضوا قانوني التجنيس الصادرين ب(1865) وبتاريخ 1919/02/04م، و هاجروا نحو المغرب والمشرق[20](Alfred Bel, MC.MXXXI :475-476).
- مطالبة "بيل" الإدارة الفرنسية بفتح متاحف أثرية إثنوغرافية، يعرض فيها نماذج من الحرف والصناعات التقليدية لتعرف السائح والمهتم بالمنتوج المحلي للمنطقة بكل سهولة (تلمسان مثلا)، والهدف من ذلك هو الكشف والاطلاع عن قرب على حياة وعادات وتقاليد المسلمين، وذلك بعرض مجموعة من المنحوتات والأواني الفخارية مرقمة ومعنونة مع وضع اسم صانعها أو مشكلها وقيمتها ومجال استعمالها(Alfred Bel, MC.MXXXI :p540).

- تنبيه الإدارة الاستعمارية إلى نقص تدريس اللغة العربية على مستوى التعليم الثانوي، وإلى تدني الأجور المدفوعة للموظفين الذين يتقنون اللغة العربية والأمازيغية، مشيرا إلى أنّ الإدارة الفرنسية والبرلمان الفرنسي لم يتوصلا بعد إلى فهم عقلية الجزائريين.
- يجب تعيين مستشارين تقنيين فرنسيين متخصصين في شؤون الجزائريين.
- تكوين لجنة تابعة للجزائر مقرها باريس تهتم بدراسة مشروع قانون خاص بالجزائريين.
- اهتمام المجلس الحكومي بتحضير قرار حكومي يهتم بدراسة إدارة الأهالي (Alfred Bel, MC.MXXXI :541.).

وبالتالي نلخص الفكرة التي كان يرغب الكاتب في تجسديها وهو أنه كان يطمح –في الأخير–لخدمة موطنه الأم فرنسا بتنبيه الإدارة الفرنسية ودعوتها إلى تقديم طرق تسيير وإدارة المجتمع الجزائري وكيفية السيطرة عليه، بتقديم الحلول المناسبة لها في ذلك، وهو ما كان يركز عليه في مقولته التي كان يرددها وهي:

"Pour gouverner et administrer les indigènes de ce pays, il ya un intérêt capital à bien connaitre leur croyances et leurs mœurs ; leurs mentalités de croyant (Alfred Bel, MC.MXXXI : 180.) ".

" Renseigner sur les coutumes, la vie morale, intellectuelle et esthétique de ces populations qu'il devait gouverner et administrer et élever à la civilisation occidentale modernes (Alfred Bel, 1931 :540.) " .

–المطالبة بتأليف مؤلفات متخصصة في المجال الأثنوغرافي تحال إلى مسابقات تحفيزية (Alfred Bel, 1912 :476.) ، تتبع بالنشر.

إن "بيل" قدم لنا حقا دراسة وافية ومفيدة، جعلتنا نكتشف طباع وعادات المجتمع التلمساني، ولكن علينا أن ننتبه إلى بعض النقاط التي حاول الكاتب طمسها مثل عدم تحديده لهوية بعض العادات أو أصلها: هل هي من معتقدات المسلمين، أم أنها مستوحاة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية الشريفة، إذ قدم لنا مجموعة من النماذج منها: الشروط التي يجب أن تتوفر في الأضحية التي تنحر، وشدة اهتمام المسلمين بتقديم النفقات للمحتاجين ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان وهي الليلة العظيمة التي أنزل الله فيها القرآن الكريم على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد أرجع "بيل" هذه الممارسات إلى طقوس قديمة، كأنه لم يبحث في أحكام الشريعة الإسلامية، وما نص عليه القرآن الكريم والسنة النبوية، رغم أنه قد تخصص في الدراسات الإسلامية وتشبع بها، إلا أنه يخفي ذلك في العديد

من الجوانب الدينية، إذ نجده يبالغ في وصفه للعادات والطقوس ويبعد من خلالها انتماء التلمسانيين للدين الإسلامي، ثم صبّ اهتمامه بتعليم أبناء المسلمين الذين تشبعوا بالثقافة الأوروبية وتجردوا من انتماءهم الديني الإسلامي، باعتبار أن الإدارة الاستعمارية والمتحضرة حررتهم من الشعوذة والسحر، حيث تخلى الجزائري عن العباءة وارتدى اللباس الأوربي وأصبح يجلس في المقاهي ويطلع على الجرائد والصحف باللغة الفرنسية، وكأن بيل يطمئن الإدارة الاستعمارية بتفوقها الذي حققته من خلال تكوينها لفئة متعلمة ومطلعة على الحضارة الغربية ومنبهرة بها، ولكن السياسة الفرنسية بذلك، أفادت نخبة مثقفة من حيث لا تدري، حيث جعلتها واعية متلاحمة فراحت تحارب الاستعمار الفرنسي، وتطالب بالاستقلال.

12.الإحالات :

1.ألفريد بيل (**Alfred Octave Bel**):ولد ألفريد بيل بسيلان جورا (Salin Fura) بتاريخ 1873/05/14، تحصل على شهادة البكالوريا بفرنسا، وعلى عدة جوائز منها شهادة بوردان(Bordin) سنة 1915 وشهادة سينتور (Saintour) سنة 1920، ثم تحصل على جائزة في علم الآثار سنة 1918، عين عضوا أجنبيا للأكاديمية التاريخية بمدريد سنة 1927م، ثم عضوا مراسلا للمعهد الفرنسي سنة 1929 سافر إلى الجزائر، حيث عين معيدا بمدرسة البليدة ثم بثانوية وهران والجزائر، وخلال سنة 1899، أنهى دراسته بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر، حيث تخصص في تعلم اللغة العربية والتاريخ والدين الإسلامي، عين سنة 1899 بمدرسة تلمسان أستاذا في الأدب، ثم عين مديرا لهاسنة 1904م. كلفه الجنيرال "ليوتيlyautey" في مهمة إلى المغرب الأقصى لتعليم وتلقين اللغة العربية بمدينتي فاس ومكناس مابين 1914 و1916. ينظر:

-(Jeanne et André Brochier, 1937 :36).

عاد بيل إلى الجزائر لمواصلة مهامه كمدير لمدرسة تلمسان إلى غاية تقاعده سنة 1936م، إذ يعتبر من مؤسسي نقابة اتحاد أصدقاء تلمسانالقديمة (Syndical d'initiative de Tlemcen et la société des amis du vieux Tlemcen) حيث عين رئيسا مسيرا لها ثم محافظا بمتحف آثار المدينة، توفي بمكناس سنة 1945، وكان قد شارك في العديد من الملتقيات وألف العديد من المؤلفات والمقالات، منها: –القضاء الإسلامي في الجزائر سنة 1927. –قبيلة بني سنوس ومساجدهم 1922. –الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي منذ الفتح العربي حتى اليوم. ينظر: (Louis Abadie, 1994 :113-114)

2.استقر اليهود شمال غرب قصر المشور، واعتبر حيهم منبوذا، أما الحضر سكنوا الأحياء الواقعة شمال شرق المدينة، وسكن الكراغلة غرب المدينة وجنوبها، ثم الزنوج الذين أنشأوا مساكنهم في ضواحيها.ينظر:(J.J.L. Berges. 1859 :205-219)،

3.الدراسات التي تناولت موضوع تلمسان "مارسي" وهي لهجة العرب المتحدث بها في تلمسان Marcais, Le. dialecté arabe parlé à Tlemcen.

4.المرابطون والأضرحة المتواجدة في تلمسان هي: سيدي بومدين (بالعباد)، سيدي محمد السنوسي وسيدي نجاسي، وقمة سيدي أحمد بن سالم وسيدي بن بني عمار وأبو إسحاق الطيار، وأما بحيى أغادير فيوجد ضريحان أحدهما لسيدي الوهاب والآخر لسيدي يعقوب، وفي طريق النقرية نجد الضريح المقدس لسيدي داودي، وضريح أبي عبد الله الشودي الملقب بسيدي الحلوي، وما بين قرية سيدي الحلوي وحدود أغادير يوجد مسجد سيدي الحسن بن مخلوف الراشدي، وبالقرب من باب الكشوط بالضبط عند باب فاس، وجنوب الحوض الكبير وجود ضريح سيدي بوجمعة. أما داخل أسوار المدينة فبنيت المساجد الكبرى، وهي المسجد الكبير ومسجد قلعة المشور، ومسجد أولاد الإمام قرب المسجد الكبير وشرقا نجد ضريح سيدي أحمد بلحسن الغماري، أما جنوب غرب المسجد الكبير نجد ضريح محمد ابن مرزوق.ينظر:.(Emile Janier, 1947 :21-51)

5.المترجمان لصفائح تلك الصور الفتوغرافية هما أستاذان بمدرسة تلمسان خلال سنة 1908، وهما: بردريزت (M.Perdrizet) وشنترون (Chantron).ينظر: (Alfred Bel,1908 :2)

6. من الذين سلموا معلومات هادفة حول الفلكلور، واللهجة المتحدث بهافي تلمسان لمارسي و قدفرايدمبين وغيرهم...هو عبد العزيز زناقي، الذي كان تلميذا في مدرسة تلمسان ثم التحق بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر وبعدها عين معيدا بمدرسة اللغات الشرقية. ينظر:

-René Basset, 1905 :126.

7.ويذكر بيل بأن هذه الفوارق والنزاعات قد أزالتها الإدارة الفرنسية بين الطرفين رغم الإحساس بالنفور الذي بقي بينهما، إذ قد تنعدم المصاهرة بين العائلات الحضرية والعائلات الكرغلية. ينظر:(Alfred Bel ;1908 :3-4)-

8.مسجد سيدي إبراهيم: متواجد بحي الكراغلة، حيث رمموه وأعادوا له دوره كمسجد للصلاة، وقد دفن بجواره سيدي إبراهيم التازي الذي يعود أصله إلى قبيلة بربرية وهي"بني لانت" التي كانت تستقر في مدينة تازة، حيث تتلمذ إبراهيم التازي على يد الإمام الهواري، توفي سنة 1461.ينظر:

- Alfred Bel, 1908:4-5. - Emile Janier, 1947:45-46.

-كان الحضر يقيمون صلواتهم بالمسجد الكبير، أما الكراغلة فكانوا يتوجهون إلى مسجد سيدي إبراهيم. ينظر:
-(De Pimodan, 1903 :56).

9.بلغ عدد الأضرحة بتلمسان -في بداية القرن 20م- 100 ضريح. ينظر:(Emile Janier, 1947 :23)-

10.شاهد برجاس –لما زار تلمسان خلال سنة 1847– النسوة متوجهات نحو وادي برامBarramأما "إميل جاني "Emile Janierففي طريقه نحو العباد، فشاهد العديد من المريدين متوجهين إلى نفس المكان الذي وصفه بجنة فوق الأرض أين يوجد منبع ماء مقدس ملقب بعين ونزوتة "Ain Wanzouta. ينظر:

–J.J.L. Berges,1859 : 314. - Emile Janier, 1947 :26-27.-Abderrahman Mahdjoub, 1954 :48.

11.المرابط: نموذج عن المرابط محمد بوسيف الذي كان على قيد الحياة من ذلك التاريخ، وكان له تأثير كبير على سكان المنطقة، أما اليوم (سنة 1908) أصبح ضريحه مزارا، فنجد أن المقدم الذي عوض محمد بوسيف محترم لكن لا يؤثر في السكان مثلما كان يؤثر سابقه فيهم.ينظر:

_(Afred Bel, 1908 :7).

12.صرح الكاتب دوبيمودان(De Pimodan) أن يهود تلمسان أكثر استعمالا للتمائم من المسلمين.ينظر: (DePimodan, op.cit, p67.) التي يحررها المشعوذون بعبارات وتعويذات كاذبة لا يصدقها العقل(Alfred Bel, caractères et développement…, op.cit, p197

13.النفقات:الذين يسارعون إلى تقديم هذه الصدقات هم العجزة والمسنون والمسنات، حسب شهادة "بيل".ومن بين هذه النفقات: نفقة إحياء روح الميت، ونفقة القديد (هو طهي نصف الشاة المحافظ عليها من العيد الأضحى والتي جففت بأشعة الشمس، وتقدم يوم عاشوراء)، ونفقة يوم المولد النبوي الشريف، ونفقتا يومي15 و27 من شهر رجب، ونفقتا يومي 15 و27 من شهر شعبان ونفقتا يومي 15 و27 من شهر رمضان ، ونفقة الناير (الذي يصادف اليوم الأول من السنة الميلادية، فالتلمسانيون يحيون يناير يوم 12 جانفي، وهو عيد فلاحي، لايتناول فيه إلا الفواكه الجافة والخبز والبيض، وكانت تلقب بنفقة التين (الكرموس). ينظر:

_(Alfred Bel, 1908 :11).

14.إن طلب اللطف لا يعتبر عيدا، إنما مناجاة وتوسل، لكن باعتبار أننا قمنا بدراسة مصدر مهم احترمنا منهجية المتبعة من طرف الكاتب.

15. قبيلة عزايل: تقع شرق عروش الكاف، التابعة لقرية الخميس التي تقع جنوب شرق بلدية مغنية.ينظر:

_ (Congrés d'Oran, 1888 : 123).

16.مزار سيدي يعقوب: متواجد شرق تلمسان.ينظر:

_ (Alfred Bel, 1908 :16-20).

17.سكان البادية الذين تحدث عنهم بيل هم: سكان القلعة وأفراد قبيلة بني سنوس الذين اتخذوا كهوفا ومغارات للعيش، إذ كانوا يعيشون ظروفا مزرية.

_(Robert Tinthoin, 1954 :18).

18.الحمام: كان يغتسل المسلم في الحمام، باعتباره الطبيب الأبكم الذي يخفف الأوجاع والآلام. ينظر:

_ De Pimodan, (1903, p84).

يقول الكاتب دو لومباي(G.De.Lombay): إن عدد الحمامات بتلمسان كان أكبر من عدد الحمامات المتواجدة بالجزائر. ينظر:

_ (G.De.Lombay, 1893 :347).

19.اللهجة التلمسانية: يقول "بيل" بأن "مارسيM.W.Marçais" صنف اللهجة التلمسانية، وهي حضرية مدنية ولم تكن قط لهجة بدوية.

_ (G.De.Lombay, 1893 :43).

20.عرف التلمسانيون هجرات عديدة عبر حقبات مختلفة نحو سوريا ومصر وتونس وكانت كالتالي: 1854 – 1860 – 1870– 1875 و1888 و1898 أما خلال سنة 1913 فقد هاجروا نحو تركيا.ينظر:

–(M.CH.Lutaud, 1914:153-195-204).

13.قائمة المصادر والمراجع:

– سعد الله أبو القاسم، (1992)، الحركة الوطنية الجزائرية(1830–1900)، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر .

– ديستان إدموند– م.بن حاجي –سراج، (2011)، بني سنوس في النصف الأول من القرن العشرين (عناصر في الثقافة الشعبية)، تعريب محمد حمداوي، موفم للنشر، الجزائر.

-Alfred Bel, (1908), la population musulmane de Tlemcen, Librairie, Paul Geuthner, Paris.

-Alfred Bel, (M.CM XXXI), « Caractères et développement de l'islam en Berbèrie et plus spécialement en Algérie », Histoire et historiens de l'Algérie, librairie Félix Alcan, Paris. Pp(178-198).

-Anonyme, (1888), Congrès d'Oran, Oran et l'Algérie en 1887, notices historiques scientifiques et économiques, T1, éditeur Paul Perrier, Oran.

-De Pimodan, (1903), Oran, Tlemcen-sud Oranais (1899-1900), Librairie Honoré Champions, Paris.

-G.De.Lombay, (1893), Alger-Oran-Tlemcen, éditeur Ernest Leroux, Paris.

-J.J.L. Berges, (1859), Tlemcen ancienne capital royaume de ce nom souvenirs d'un voyage, B.Durrat. Achallamel, Paris.

-Jeanne et André Brochier, (1937), Livre d'ord de l'Algérie, éditions Baconnier frères, Alger.

-Louis Abadie, (1994), Tlemcen au passé rapproché (1937-1962), éditions Jacques Gandini, France.

-M.Ch.Lutaud, (1914), Discours prononcé à la chambre des députés sur la politique indigène du gouvernement dans l'Afrique du nord, (3-7-9/02/1914), librairie Beaugency, Paris.

المقالات:

-Bel Alfred, (10/1912), Quelques mots sur l'ethnographie Algérienne, Revue des traditions populaires, tome XXVII, (n°10), 27 année, imprimerie, nouvelle, G.Clouzot.pp(475-486).

-Bel Alfred, (1931), La connaissance des mentalités indigènes en Algérie, Congrès international et intercolonial de la société indigène (05-10/10/1931), (T1), Bibliothèque historique du Cirad, Paris. Pp(528-541).

-G.S.Tlemçani, (15/02/1909), La population Musulmane de Tlemcen, Echo d'Oran, (n°13656). P(02).

-Janier Emile, (1947), Les saints musulmans Tlemcéniens, société de géographie et d'archéologie de la Provence d'Oran, (T68), imprimeries L.Fouque, Oran. Pp(21-51).

-Mahdjoub Abderrahman, (1954), Fêtes et coutumes musulmanes, Tlemcen et sa région, (N°18), 1er trimestre, imprimé en France. pp(47-52).

-René Basset, (Février-Mars1905), Abd el Aziz Zenagui , Récit en dialecte Tlemcénien, Revue des traditions populaires, tome XX, (N°2-3), 2iém année, imprimerie Dancin.p(126) .

-Robert Tinthoin, (1954), Aspects géographiques, Tlemcen et sa région,(N°18), 1er trimestre, imprimé en France. Pp (13-20).